خرائب الشام

مدينة بيسان

نستغفر الله ليست مدينةً بل قريةٌ حقيرة ولو كانت في سالف عهدها عاصمة المدائن العشر (ديكابوليس) يسكانها الآن جالية مصرية اتى بها اليها ابرهيم باشا سنة ١٨٤٠. وهي مدينة بيت شان التي حمل اليها الفلسطينيون اجساد الملك شاول وبنيهِ بعد ان قتلوهم في واقعة جلبوع على ماهو مذكور في التوراة وارسلوا رأسهُ الى هيكل داجون وسلاحهُ الى هيكل عشتاروث

وسميت هذه المدينة سكيثوبوليس اي مدينة السكيثيين لان قبائلهم سكنتها لما نزلت على بلاد الشام ومصر في اواخر القرن السابع قبل المسيح. والاسم يوناني كما لا يخفى اطلقهُ عليها اليونان بعد ان تغلَّب الاسكندر على بلاد المشرق اما لانهم وجدوا السكيثيين فيها او لانهم وجدوا حولها اقواماً رحَّلاً كالسكيثيين فسموها بما معناهُ مدينة الاقوام الرحَّل. ولم تكن من مدن اليهود في عهد يهوذا المقابي مع ان اليهود كانوا كثارًا فيها

وتغلَّب القائد بمبايوس الروماني عليها وهو ذاهب من دمشق الى اورشليم ثم اعاد اهاليها اليها بعد فتحهِ اورشليم وجعلها من المدن الحرَّة. ولما اوقع الرومانيون بيهود قيصارية وذبحوهم قام اليهود وهجموا على بيسان ليقتلوا من اليونانيين سكانها فانضم اليهود الذين فيها الى اليونانيين وغيرهم من السكان وحاربوا اليهود الهاجين عليها وابدوا من الحماسة والشجاعة في محاربة اخوانهم ما جعل باقي السكان يسيئون الظن بهم على ما رواهُ يوسيفوس فطلبوا منهم ان يتنحَّوا عن المدينة الى غاب خارجها فخرجوا اليهِ م وعيالهم الاَّ ان اهل المدينة غدروا بهم وبيَّتوهم وقتلوا منهم ثلاثة عشر الف نفس. فما قولك بمدينة يقتل من فريق صغير من اهلها ثلاثة عشر الف نفس وكان ذلك سنة ٦٥ للمسيح

واطلق عليها الرومانيون اسم مدينة القصور لكثرة قصورها ومبانيها الفخيمة وكانت لا تزال في عزها في اوائل القرن الرابع بعد المسيح وقد ذكرها يوسيبيوس وايرونيموس وقالا انها كانت مدينة عظيمة. وحضر مطرانها المجمع الذي عقد في فلسطين سنة ٣١٨ والمجمع النيقاوي الاول الذي عقد سنة ٣٢٥. وناب نائب عن رهبانها في المجمع القسطنطيني الذي عقد سنة ٥٣٦ وفيها ولد باسيليدس زعيم طائفة الفلسطينيين المصرية وكيرلس بطريرك الاسكندرية الذي قُتل في عيدهِ هباشيا العالمة الوثنيَّة

ولما فتح العرب دمشق ارسل ابو عبيدة شرحبيل وجنودهُ الى بيسان فقاتلوا اهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم صالحهم من بقي على صلح دمشق. ولا يذكر اسم هذه المدينة بعد ذلك الاَّ نادراً فانها انحطت عن عظمتها الاولى بعد فتوح الشام ولم تزل تنحط حتى الآن. ويمر فيها جدولان يقسمان خرائبها الى ثلاثة اقسام القسم الجنوبي حيث قرية بيسان الحالية والميدان والملعب واثار اسوار قديمة والقسم المتوسط وفيهِ اكمة كان فيها الحصن الذي عُلق عليهِ رأس شاول ورؤوس ابنائهِ والقسم الشمالي وفيهِ آثار كنيسة فخيمة وحمامات وحصون وحول الاقسام الثلاثة آثار السور القديم

والميدان او المشهد مطمور كلهُ تقريباً الآن وقد كان طولهُ من الشرق الى الغرب ٢٨٠ قدماً وعرضهُ من الشمال الى الجنوب ١٥٣ وهو بناء مستطيل مستدير الطرفين جدرانهُ من الحجارة السود الصلبة ومقاعدهُ من الرخام الابيض

والملعب شمالي الميدان وهو يزيد على نصف دائرة قطرها ١٨٠ قدماً وهناك استشهد كثيرون من المسيحيين في عهد يوليان المرتد. ولا تزال العرُن التي كانت توضع فيها الضواري حتى الآن. وكان فيهِ نقر بيضيَّة الشكل توضع فيها انابيب من النحاس لتقوية الصوت. وبناء الملعب مثل بناء المشهد من الحجارة السود ومقاعدهُ من الرخام الابيض وتحتها عقود من الحجارة السوداء ولذلك يسمَّى بالعقد

وجنوبي الملعب جامع الاربعين فوق محرابهِ كتابة يقال فيها انهُ بني سنة ٨٠٦ للهجرة وقد كان كنيسة قديمة فحوِّلت جامعاً

وفي المدينة اكمة طبيعيَّة يقال لها تل الحصن تطلُّ على البلاد المجاورة هناك بنى الصليبيون القلعة المسماة بقلعة الربوض وتحتها آثار سور كبير كان يحيط بالتل

وكان بعض البستانيين يحفرون في ما يسمَّى بستان السلطان فعثروا على آثار كنيسة فيها سبعة وعشرون عموداً بتيجانها وقواعدها وهي من الشكل الكورنثي وكلها من الرخام الابيض

وفتح الصليبيون بيسان وقالوا انها كانت كثيرة الخرائب في خرائبها كثير من الرخام وقاوم اهلها صلاح الدين سنة ١١٨٢ لكنهم هربوا منها في السنة التالية فنهبت وحرقت. وذكرها ابو الفداء فقال في مدينة صغيرة بلا سور ذات بساتين وانهار وهي على الجانب الغربي من الغور وهي كثيرة الخصب ولها من جملة انهرها نهر صغير من عين تشق المدينة وبينها وبين طبرية ثمانية عشر ميلاً وهي في الجنوب عن طبرية

هذا ما بقي من عاصمة المدن العشر ومن مدينة من اكبر مدائن الشام